

الفصل الثاني عشر

مرحلة انتقال

أمضى الإنسان الأوروبي ثلاثة قرون محاولاً التخلص مما كسا عقله وصيغ تفكيره خلال العصور الوسطى . وشهدت الفترة بين القرن الرابع عشر والسادس عشر حركات جريئة تحدى فيها العقل الأغلال التى صدفته طويلاً ، تحدى فيها الفلاحون والأقنان سادتهم وثاروا عليهم ، تحدى فيها العامة رجال الدين ورفضوا سطوتهم وسلطانهم بل تحدى الملوك سلطة الكرسى البابوية ... وتعتبر هذه القرون مرحلة انتقال بين تربية العصور الوسطى وتربية العصور الحديثة ، بل إنها الفترة التى بذرت فيها بذور التربية الحديثة .

أولاً : عصر النهضة

قبل أن نتحدث عن التقدم التربوى فى عصر النهضة جدير بنا أن نلقى نظرة سريعة على مظاهر الحياة السائدة فيما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر فى أوروبا :

١ - تمت السلطة السياسية المركزية للحكام فى إنجلترا وفرنسا ، وبذلك كان النظام الإقطاعى يخلى السبيل للمؤسسات المركزية أى للحكومة القومية فى الدولة . ولكن الحال فى ألمانيا وإيطاليا ظل يعج بالفوضى نتيجة انقسام كل منهما إلى دويلات وإمارات . كما أن النظام السياسى فى إنجلترا وفرنسا ساعدهما على تكوين إمبراطوريات استعمارية . وقد عرفت أوروبا حروباً عديدة خلال قرون النهضة الثلاثة ، ولعل أشهرها حرب المائة عام التى بدأت بين فيليب الرابع ملك فرنسا وإدوارد الأول ملك إنجلترا ، واستمرت هذه الحروب من ١٣٣٧ إلى ١٤٥٣ ، فقد رفض ملوك فرنسا أن يكون الملوك إنجلترا أبة سيادة على أرض القارة الأوروبية خارج الجزر الإنجليزية :

٢ - نمت التجارة التي بدأت في الازدهار خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، وكانت مدن إيطاليا وشمال ألمانيا مراكز هامة للتجارة ، ولكن تغييرات حدثت خلال القرن السادس عشر بعد اكتشافات فاسكودى جاما ، وكريستوفر كولمبس ، وماجلان ، فقد ظهرت آفاق جديدة للتجارة عبر المحيطات بعد أن كانت قاصرة على البحار مثل المتوسط والبلطيق والشمال . وازدهرت صناعة السفن وحرف كثيرة مرتبطة بالبحر والملاحة .

وبدأ تأثير الطبقة المتوسطة السياسي يظهر في البرلمان الإنجليزي وفي السياسة الفرنسية وفي المدن الإيطالية الكبرى مما عكس صورة عن الثروة المتزايدة والقوة الاقتصادية النامية لدى جماعات التجار وهم الذين عرفوا باسم البرجوازيين ، والذين تجمعوا في المدن الكبرى .

وعرف عن عصر النهضة كثرة ثورات الفلاحين الدامية ، كما ازدحمت المدن بالسكان تحت ظروف غير صحية . وانتشرت المجاعات وقتل الموت الأسود ملايين البشر . وقد أدى هذا إلى الإلحاح في مزيد من الأيدي العاملة مما دعا إلى تحرير أعداد غفيرة من الأرقان من القيود الإقطاعية التي فرضت عليهم . وقد ثار الفلاحون في إنجلترا في القرن الرابع عشر ، حتى تمكن معظم الفلاحين من التمتع بحريتهم في السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر ، وتحول بعضهم إلى عمال في المدن . أما ثورات الفلاحين في ألمانيا فكانت أشد عنفاً ، وهاجم أحد أنصارهم وهو هانز بوم سنة ١٤٧٦ نظام الضرائب والإلتزامات المفروضة عليهم . كما هاجم رجال الدين قائلًا إذا كان كل الناس إخوة فعليهم أن يتناصروا خيرات الأرض وتناجها . وقبض عليه وحرق ، ولكن الثورة اشتعلت من ١٤٩٢ إلى ١٥٢٥ على ركيزة من التفكير الاشتراكي ومطالبة بأن تكون الغابات والحجاري المائية مشاعاً فلا تقصر على الاستخدام الشخصي لطبقة النبلاء .

٣ - نمت الحركة المضادة للبابوية خلال عصر النهضة ، فوقف فيليب الرابع ملك فرنسا وجهاً لوجه أمام البابا بونيفاس الثامن . فقد أصدر البابا (م ٢٢ - تطور الفكر)

قرارات بألا يدفع رجال الدين ضرائب للملوك وألا يحاكموا أمام محاكم مدنية وأن له هو السلطة العليا على كل الحكام ، وأعلن عزل فيليب الرابع . فأرسل له فيليب جيشاً صغيراً قبض على البابا وطالبه باعتزال كرسي البابوية . ومات البابا بونيفاس بعد قليل وسقطت هيبة البابوية . ولمدة سبعين سنة احتل كرسي البابا الفرنسيون الذين يتلقون أوامره من فرنسا الأمر الذي لم يرض كبار رجال الدين في روما وحدث انشقاق ثم محاولات لدرء الانقسام الديني . ثم ظهرت زعامات دينية وحركات انفصالية خلال القرن السادس عشر منها حركة مارتن لوثر وحركة كلفن ، وعادت إلى البابوية سيادتها في نطاق الكنيسة الرومانية الكاثوليكية .

ومع بداية القرن السادس عشر كانت الهجمات على الكنيسة تزداد من كل اتجاه ، فالملوك والحكام يريدون بسط نفوذهم على الكنيسة ، كما ثار الفلاحون معترضين ومعهم أفراد الطبقة الوسطى على الضرائب التي تفرضها الكنيسة ، وكانوا يصيحوون أن رجال الكنيسة غرتهم الدنيا والغنى والمال فأهملوا واجباتهم الدينية . ولم تعجب الكثيرين الطرائق التي لجأت إليها الكنيسة في الحصول على المال فللغفران صكوك تباع ، وللرجل أن يقترف الخطيئة ثم يدفع قدرأ من المال فيعود طاهراً كأنه لم يقترفها وتعالص صيحات الاحتجاج على الكنيسة من مختلف أركان أوروبا .

٤ - نمت حركة تحول الاهتمام من روحانيات العالم الآخر ومن خوارق الطبيعة إلى العالم الطبيعي ، وبدأ الناس يدرسون الطبيعة وظواهرها وأن لها قوانين تسيروها ويمكن معرفتها . وبهذا بدأ التحرر من الاتجاهات السابقة المؤمنة بقوة إلهية لا سبيل إلى إدراكها ، وبدأ العلم الحديث يأخذ شكل - معتقدات وافتراسات مثل : التأكد من أن أسرار الطبيعة يمكن الكشف عنها ، الاعتماد بأن « العلم » يعني أننا نتعلم بملاحظتنا للطبيعة لا بأنه المعرفة التي انحدرت إلينا من الماضي . وأخيراً تطور طريقة الحصول على المعرفة وهي ملاحظة الطبيعة وجمع الحقائق والتحقق الموضوعي منها واستخدام العمليات

الرياضية ، ثم أخيراً تطبيق النتائج على الطبيعة . ولم يقدم لنا عصر النهضة تقيماً في العلم يقاس بما حققه القرنان السابع عشر والثامن عشر ، ولكنه أرسى دعائم التقدم العلمي وهز أركان السيطرة الدينية عليه ، وجعلها تسير حثيثاً في طريق الضعف .

٥ - نمت دعوة الحركة الطبيعية التي تقول بأن للطبيعة البشرية صفات للخير متضمنة فيها . وكانت هذه الحركة تحدياً صارخاً لمذهب الخطيئة المتأصلة والتأكيد على الشر الفطري في الطبيعة البشرية . وقد قال البعض إن الخير ممكن بين الشعوب البدائية بدون بركات الدين والمدنية . وكانت هذه الحركة التفاولية عن الطبيعة البشرية ركيزة لآراء مفكرين في العصور التالية منهم روسو .

٦ - نمت الاهتمامات بالأدب الكلاسيكي القديم ، فنقرأ عن الحركة الانسانية Humanism (١) وشغفها العميق باللغات القديمة وإدائها مع احتقارها لما عدا ذلك . ولكن الإنسانيين لم يهاجموا الكنيسة ولا الدين ولا النظم السائدة منذ العصور الوسطى ، ولم يعنوا بالبحث في الطبيعة ، ومع ذلك فقد اهتموا بالطبيعة البشرية وبفردية الإنسان وهاجموا خضوع الفرد لمطالب المؤسسات كالكنيسة والنقابة ، ووجدوا أن الطريق إلى كمال الطبيعة البشرية هو دراسة الآداب القديمة . وظهرت تباشير حديثة ممتزجة مع روح القرون الوسطى في « الكوميديا المقدسة » لدانتي . ومن رواد الحركة الإنسانية بترارك Petrarch الإيطالي (١٣٠٤ - ١٣٧٤) وقد أطلق عليه لقب « أول رجل حديث » وكان مفتوناً بشيشرون الروماني وكتاباته التي مرت عليها قرون طويلة .

ومن رواد الانسانيين بوكاشيو Bocaccio الإيطالي (١٣١٣ - ١٣٧٥) الذي أبقى في منزله يونانياً ليقرأ له أشعار هومر . وكان بوكاشيو جامعاً للمخطوطات الإغريقية وشروحها ، وكان يدرسها ويعلق عليها ، ويذكر أنه أنشأ كرسي دراسة الأدب الإغريقي في فلورنسا عام ١٣٥٠ (١) .

ومن كبار المنادين بالحركة الانسانية إيرازمس الهولندي Erasmus (١٤٦٦ - ١٥٣٦) الذى درس الآداب القديمة ودرس فى جامعة كامبردج وجامعات فرنسا وكتب مؤلفات لعل أشهرها وأهمها « تمجيد السذاجة » Praisof Folly « والمحاورات » Colloquies « والحكم والأمثال » Adages

الاتجاهات التربوية فى عصر النهضة

كان لابد أن تتأثر التربية بما أصاب المجتمع فى عصر النهضة من تغيرات جعلته مجتمعاً مختلف عن مجتمع العصور الوسطى . ويمكن القول إن التربية (الحديثة) التى حتمها مجتمع عصر النهضة تختلف جذرياً عن التربية (القديمة) فى تأويلها للفلسفة الإغريقية ، فأصبح لأفلاطون مكانة أسمى من مكانة أرسطو ، كما أفسح الطريق لدراسة آداب الإغريق والرومان على أساس أنها تعبر أصدق تعبير عن خير ما فى الإنسان والطبيعة ، واهتمت التربية الحديثة بما فى الآداب الكلاسيكية من قوة التعبير وجمال الصياغة والحرية والانطلاق . ويذكر أن من أسباب الانطلاقة الفكرية والحرية من القيود العقلية ما أنتجته الحروب الصليبية وخاصة من ناحية الاحتكاك بالشرق الإسلامى ، هذا إلى جانب ما أسهمت به الجامعات فى إذكاء للفكر المتحمس الحر الذكى - المنطلق . ولا ننسى قيام الطبقة البرجوازية فى المدن الكبرى . وكذلك كان لاختراع البارود أثره فى أن جعل فى إمكان الرجل العادى أن يتحدى السلطة التى تعتمد على القوة المادية . كما أن اختراع الطباعة مكن للمعرفة أن تنتشر وألا تكون حكراً لفئة قليلة . وكانت هذه الفئة - فى العصور الوسطى - تحتكر التفكير وتقصره عليها ، ولذلك كانت هنالك وحدة فكرية تفتتت فى عصر النهضة :

وبدأ إنسان عصر النهضة يجد شخصيته التى تاهت منه فى ظلام العصور الوسطى ، وبدأ يحسن بإمكانية التعبير عن نفسه . وبهذا بدأت تظهر تيارات فكرية حلت محل ركود وجمود قرون طويلة مضت . على أن هذه القيادات الفكرية لم تأخذ سبيلها المنتظم المتسق ، فقد ظهرت فى بدايتها أمواج عاتية

عالية ذات صبغة فردية متطرفة ، ثم تحولت تدريجياً إلى حركات نظامية . بل إلى أنماط من المدارس الفكرية . ويرى منرو أنه تتمثل في عصر النهضة ثلاث نواح من الاهتمامات كانت مجهولة في العصور الوسطى ، وأنها فتحت ثلاثة من ميادين الحياة أو مظاهرها كانت مطوية تقريباً تحت صدأ العصور الوسطى ، وهذه النواحي هي :

١ - اهتمام بالحياة الماضية الحقيقية وإمكاناتها كما عبر عنها الإغريق والرومان في آدابهم وفنونهم ، بينما تناسى مجتمع العصور الوسطى هذه الحياة بل لم يلقوا إليها اهتماماً يذكر .

٢ - اهتمام بالعالم الشخصي وهو عالم الانفعالات والاستمتاع بالحياة وتذوق ما فيها من جمال ، وإدراك حقائق النفس / البشرية ، ويتم هذا بالمشاركة في كل مناحي النشاط الحيوي التي تحيط بالفرد حتى يتثقف ذاتياً . وقد أهملت العصور الوسطى هذا الاهتمام ، بل جهلته .

٣ - اهتمام بالعالم الطبيعي ، فقد أهملت العصور الوسطى هذا العالم بل رأت المسائل الطبيعية غير جديرة بأي اهتمام .

وقد أدت هذه الاهتمامات الثلاث إلى اتجاهات نحو التثقيف الذاتي والنمو الشخصي ومحاولة الوصول إلى تربية مركزها النفس البشرية ، وإلى الاهتمام بالحياة الدنيا .

كما أدت هذه الاتجاهات إلى بعث للفلسفة الإغريقية وإعادةها إلى الحياة بعد ما أضفاه عليها الشراح من فلاسفة العرب ، وخاصة فلسفة أرسطو . وكان الاهتمام موجهاً إلى مبادئ أرسطو الطبيعية أكثر من الاهتمام بالجزء الخاص في فلسفته عما وراء الطبيعة . ويتميز عصر النهضة بالعناية بالناحية الفردية وبالميل إلى الحقيقة المادية ، ومن ثم إلى الناحية الجمالية .

المدلول التربوي للنهضة : الحركة الانسانية

في إيطاليا : كتب أحد أساتذة جامعة بادوا رسالة في التربية عام ١٣٧٤ صور فيها الهدف من التربية ، فقال إننا لا نطلق على الدراسات اسم الدراسات

الحررة إلا إذا كانت جديرة بالرجل الحر ، وبها يمكن أن ندرك الفضيلة والحكمة ونمارسهما . وفي رأيه أن هذه هي التربية التي تعمل على استدعاء وتدريب وتنمية أعظم المواهب العقلية والجسمية التي تشرف الإنسان . ويرى فيرجيريو Pierpaolo vergerio أن الغرض من الحياة لدى صاحب المزاج العادى هو اللذة والكسب ، وأما صاحب الطبيعة الراقية فيهدف إلى القيم الخلقية والشهرة (١) .

وفيرجيريو إيطالى من أنصار الحركة الإنسانية ، وزامله فى المناذاة هذه الاتجاهات الإنسانية وتأييدها فى إيطاليا فيتورينو Vittorino وسيليفياس Sylvius وكاستيلونى Castiglione . وغيرهم . وقد تكون بينهم اختلافات ولكنهم يشتركون فى أن أهداف التربية هى (إنتاج الفرد صاحب الثقافة الواسعة ذى الشخصية المتزنة المتكاملة ، القادر على تبوء القيادة فى الكنيسة والدولة . وعليه أن يلم بالأدب الكلاسيكى ، وأن يكون فى نفس الوقت إنساناً مسهماً فى مجتمعه ، قادراً على أن يعبر عن نفسه بالشعر ، مستطيعاً الغناء والرقص ، يتمتع بصحة جيدة ، وأن يكون مسيحياً مهذباً (٢) .

وأما عن تعليم البنات ، فقد رأوا أن المرأة المثالية هى التى تتحلل بالصفات التى تناسب تلك الشخصية الذكرية التى هدفوا إليها ، ولكنهم لم يعطوا أسلوباً منهجياً لإعداد مثل هذه المرأة .

ولعل تحليلاً لمقومات تربية هذه الشخصية التى هدف إليها الإنسانون Humanists ترينا أنهم ضمنوها كل القيم الممكنة ، فهذه الشخصية قادرة فى الأدب والفن والحياة الاجتماعية . . . ولم يعن الإنسانون ، على عكس التربية القديمة ، عناية كافية بالرياضيات والتاريخ الطبيعى . . . وأهملوا تماماً اللغة الدارجة . ودرسوا التاريخ والأخلاق من كتابات القدماء أنفسهم .

أما عن طرق التدريس فقد اهتموا بالحفظ والاستظهار ، ولكنهم فضلوا

McCormick, op. cit., p. 326 (١)

Butts, op. cit., p. 227 (٢)

أن يفهم الطالب القواعد أثناء دراستها . بل اهتم الإنسانيون بما بين التلاميذ من فروق . ولكنهم لم يتركوا ما يستدل منه عن كيفية تطبيق هذا على دراسة أدب شيشيرون أو فرجيل . ونصح الإنسانيون بالتقليل من العقوبات البدنية ، وحرصوا على تشجيع تنافس التلاميذ في عملهم لاكتساب إعجاب المجموعة ومع تقدم الإيطاليين في فن المعماري وهندسة البناء والزخرفة . فإن الحركة الإنسانية في التربية لم تسهم بشيء يذكر في هذا السبيل ، فلم تكن هذه من الفنون العقلية الحرة في نظرها .

في فرنسا : على أن حركة الإنسانيين الإيطاليين وهم رواد حركة النهضة تحطت الحدود الجغرافية وانتشرت في أنحاء أوروبا حاملة معها شعلة التفكير الحر . وقد زار بترارك الإيطالي باريس عام ١٣٦١ م ، وقد صاحبه في الزيارة قس فرنسي . ويذكر أن الخلفات الأدبية الكلاسيكية ترجمت إلى الفرنسية في أيام حكم شارل الخامس (١٣٦٤ - ١٣٨٠) . وكان Jean de Montreuil (١٣٥٤ - ١٤١٨) أول الإنسانيين الفرنسيين ، وكان مبعوثاً ملكياً في روما ، وصديقاً لعدد من الإنسانيين الإيطاليين .

وكان لجامعة باريس دور في الحركة الإنسانية . فقد درست بها — كتابات الكلاسيكيين ، كما عين بها أستاذان لتدريس الإغريقية . كما أذ انتشار الطباعة ساعد على قراءة الخلفات الكلاسيكية . وكان أول كتاب طبع في فرنسا في عام ١٤٧٠ هو (خطابات جازبارينو دي بارزيراً Gasparino de Barzizza) (١) وهو أحد الإنسانيين الإيطاليين الأوائل .

وتوَّرخ الحركة الإنسانية في فرنسا منذ القرن السادس عشر ، ومن روادها وحملتها لوائها Guillaume Budé زميل إيرازمس . وقد درس بودية القانون ثم اتجه إلى الآداب ، وعلم نفسه اليونانية ثم اللاتينية .

وأشهر مقالاته التربوية التي ظهرت بالفرنسية هي De l'Institution du Prince (تربية الأمير) ، وقد وجهها للملك الصغير فرنسيس

الأول ، لتهدية الشخصى وتذوقه الأدبى ، وفى نفس الوقت ليحوى الأدبا ويرعاهم .

ولعل أشهر مؤلفى فرنسا فى عصر النهضة هو رابليه Rabelais الذى سخر من مدارس عصره ووصفها ناقداً فى صورة كاريكاتورية ضاحكة فى مؤلفه Gargantua et Pantgruel وكتبه بالفرنسية ، وساعدت الطباعة على انتشاره . وقد سخر رابليه من غلبة الشكلية على المدارس الإنسانية ، كما تهكم على التربية (القديمة) ، وقارن بينها وبين الاتجاهات الواقعية (الحديثة) .

وقد عضد الكلاسيكيات ، ولكنه أصر على ضرورة توجيهها للسلوك ، فلا تقتصر على النواحي اللغوية والأدبية : وقد اقترح رابليه منهاجاً اشتمل على مواد كثيرة : منها اللغات اللاتينية ، واليونانية ، والعبرية ، والعربية ، والنحو ، والحساب والهندسة ، والعلوم الطبيعية ، والتربية البدنية

فى إنجلترا : ظهر من أبنائها إرواد فى الحركة الإنسانية منهم لينارك Lincare ونشيك Cheke وليللى Lilly وكوليت Colet وآسكام Ascham الذى كتب رسائل عن التربية باللغة القومية : وقد خلف آسكام أستاذه تشيك فى كرسي اللغة اليونانية فى جامعة كمبردج . كما عين مثقفاً للأميرة اليزابيث قبل أن تصبح ملكة . وقد كتب آسكام رسالة فى التربية سماها المعلم The School Master . وملخص فكرته عن التربية أنها ثقافة تهدف إلى غرس الفضيلة والتهديب الخلقى والكفاءة العملية . وترى أن الوصول إلى هذه الأهداف يكون عن طريق الأدب . وقد عارض آسكام فى استخدام العقوبات البدنية إلا فيما يتعلق بالهفوات الخلقية .

ومن رأى آسكام أن التقليد والتكرار مهمان . ويرى أن يكرر المدرس حتى يتمكن منه المتعلم . كما رأى أن يتعلم المتعلم أولاً لغته القومية (الإنجليزية) ثم يترجم الإنجليزية إلى اللاتينية ثم يعود فيترجم إلى الإنجليزية .

ومن رجال عصر النهضة الإنجليزية السير توماس اليوت Thomas Elyot

الذى ترجم مؤلفات بلوتارك الكلاسيكية وايسوقراط إلى الإنجليزية . ولإليوت كتاب بالإنجليزية عنوانه (هكذا) Boke Named the Governour لتعليم رجال السياسة اللغة اليونانية واللاتينية والبلاغة والمنطق والهندسة والفلك والموسيقى والتاريخ والجغرافية والرسم والنحت والتربية البدنية . ونلاحظ في كتابه إنه لم يتمسك بمجمود جماعة الإنسانيين ، فقد غلب على الكتاب الشمول لجوانب عديدة من المعرفة (١) .

ويتضح من الاتجاهات الإنسانية في بعض المناطق الأوروبية التي تخيرتها أن الأدب الكلاسيكي أصبحت إله الصدارة . وأصبح الشخص المثقف هو الدارس للآداب الإغريقية واللاتينية ، و(الجتلمان) هو من ألم بهذه الآداب . على أن الحركة الإنسانية لم تقف عند حد تعلم هذه الآداب فقد هدفت التربية في نظرهم إلى إعداد الأفراد لحياة مدنية ليكونوا في خدمة الدولة والكنيسة والنبلاء وكبار التجار . هذه التربية للخدمة العامة يجب أن تبدأ بأرضية سميكة غنية من الأدب الكلاسيكي . وأصبح المعنى الجديد للتربية العقلية الحرة يشمل إلى جانب الأدب . التربية البدنية والجمالية والحلقية والاجتماعية .

ومع أن الحركة الإنسانية أحيت الآداب القديمة . ونادى روادها بآراء تربوية هاجمت الإجراءات التي كانت سائدة أيام عصر النهضة ، إلا أن بعض الاتجاهات الإنسانية لم تأخذ طريقها إلى التنفيذ . ويتكلم منو عن التربية الإنسانية القاصرة فيقول إن الاهتمام بالتربية الحرة الذي شمل الأهداف ومظاهر النشاط الملائمة للجنس البشري والذي اتخذ ركيزته أساساً دراسة الآداب واللغات القديمة سرعان ما تغير حتى أصبحت دراسة الآداب القديمة في القرن السادس عشر تعتبر غاية في حد ذاتها ، بعد أن كانت مجرد وسيلة من قبل . وصار يقصد من المواد الإنسانية لغات القدماء وآدابهم ، وبذلك أصبح التفكير في الهدف من التربية منصباً على دراسة الآداب بدلا من

(١) Eby, Frederick : The Development of Modern Education, p. 95 .

دراسة الحياة ، واتجهت الجهود التربوية نحو التمكن من هذه الآداب ، بل صارت الناحية الشكلية من هذه الآداب ذات أهمية كبرى بدلا من محتواها .

مع هذه الشكلية انحصر استعمال معنى المواد الإنسانية على اللغتين الإغريقية واللاتينية وآدابهما ، بل ضاق معنى « التربية الإنسانية » حتى أصبح يقصد منها ذلك النوع من التربية المطابق لمعنى « المواد الإنسانية » . وغلبت النواحي الشكلية في طرق التدريس بالمدارس ، مع هذه التربية الإنسانية القاصرة ، فأصبح معظم الاهتمام موجهاً لدراسة قواعد اللغتين القديمتين والتدريب عليها دون مراعاة طبيعة الطفل وميوله . فالطفل في رأى المربين ، وقتئذ ، رجل صغير لا يختلف عن الرجل الكبير الراشد في ميوله وقواه العقلية إلا من حيث الدرجة . ولذلك فهو يكلف عند أول قدومه للمدرسة معرفة لغة أجنبية ، حتى ولو لم يتعلم لغته القومية ، وسبيل تعلمه هذه اللغة غاية في الشكلية ، فهو يقوم على دراسة قواعد اللغة والبيان واستظهارها . ولهذا فكانت لقوة التذكر ، وهي واحدة من قوى العقل ، أهمية عظيمة .

معاهد التعليم

على الرغم من تأثير الحركة الإنسانية ، إلا أن عدداً قليلاً من المدارس العامة التي تعلم اللغات الدارجة نجحت في اجتذاب تلاميذ يتعلمون فيها القراءة والكتابة باللغة الدارجة . وكان التلاميذ يتعلمون أيضاً مبادئ العد والحساب . على أن هذه المدارس كانت دائماً تحت مطارق النقد التي وجهها إليها الإنسانون مركزين على اهتمامهم بأنها ليست عقلية المحتوى ، وأنها لا تدرب العقل . ولكن هذه المدارس العامة استمرت في عملها ، بل بدأت تجذب أعداداً أكبر حتى شقت طريقها بثبات خلال عهد الإصلاح الديني . ثم أصبحت هذه المدارس جزءاً من الأنظمة القوية للتربية .

أما عن المدارس الثانوية الحديثة في عصر النهضة فقد تطورت عن المدارس الموجودة بعد أن حلت اللغة اللاتينية القديمة محل لاتينية العصور الوسطى ، كما استبدلت دراسة البيان الشكلية بالدراسات الكلاسيكية الأدبية وحلت

العلوم الرياضية محل الحوار المنطقي ، وأضيفت اللغة اليونانية التمدية ، وأحيانا اللغة العبرية .

أما عن التعليم العالى فله قصة . ففى إيطاليا عارضت الكنيسة والجامعات الآداب الكلاسيكية فى أول الأمر ، وصدوا أبوابها عنها إلا فيما يتعلق بما نهجوا عليه فى القرون الوسطى ، بينما شجع البلاط هذه الآداب . ونفس القصة تكررت فى فرنسا فكان البلاط الملكى من أوائل المؤيدين للحركة الإنسانية . فقد وجدت جامعة باريس ، فى أول الأمر ، أن الحركة الإنسانية تهدد مصالح الأفراد المهتمين باللاهوت والدين وفلسفة أرسطو .

ومع تقدم الحركة الإنسانية فى إيطاليا وغزوها جامعات شهاها فى القرن الخامس عشر بدأت تشق طريقها رويداً رويداً فى فرنسا ، حتى استطاع الملك فرنسيس الأول تأسيس Collegede France ، وكان هذه الكلية كراسى أسانذة لليونانية القديمة والعبرية واللاتينية والفرنسية والقانون والفلسفة والرياضيات والطب .

أما فى ألمانيا فقد أسس أول كرسى لحركة التعليم الحديثة « كرسى الشعر والخطابة » فى جامعة أرفرت Erfurt فى نهاية القرن الخامس عشر ، كما أن جامعة وتنبرج Wittenperg سارت على مبادئ النهضة منذ بدء إنشائها . وفى إنجلترا لم تسمح السلطات فى جامعتى كمبردج وأكسفورد بالدراسات الإنسانية إلا فى مستهل القرن السادس عشر ، وخاصة بعد زيارة إيرازمس لجامعة أكسفورد عام ١٤٩٨ ، كما كان له الفضل فى التطوير الذى حدث بجامعة كمبردج التى درس بها مدة أربع سنوات من عام ١٥١١ م .

• • •

وكلمة ختامية عن عصر النهضة تلح لتوضيح حقيقة موقف الإنسانيين من مدلول التقدمية والتقليدية . فمع سنى النهضة الأولى وظهور الحركة الإنسانية ثائرة غاضبة على ما خلفته العصور الوسطى ، كان ينظر لأنصار الحركة على

أنهم تقدميون ، وكان الإنسانيون يبنون موقفهم التقدمي على مبادئ وأسس قنعوا بها وهي :

١ - أهمية نمو الإنسان كفرد :

٢ - ضرورة العناية بطبيعة واهتمامات المتعلم في تربيته :

٣ - ضرورة تحرر الفرد من ظلمة وجهالة العصور الوسطى :

٤ - ضرورة تقديم دراسات واقعية للمتعلم :

ورأى الإنسانيون أن الدراسات الكلاسيكية في الأدب والشعر والخطابة كفيلة بتحقيق هذه المبادئ .

ومن العجيب أن نفس هذه المبادئ والأسس نادى بها أنصار التقدمية الجديدة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في صيحاتهم المدوية ضد منهج الإنسانيين الذين وصفوا حينئذ بالتخلف والجمود والقدم ، واتخذ أنصار التقدمية الجديدة الدراسات الاجتماعية والعلمية أسلحة يحطمون بها منهج الإنسانيين . وإذا كان هذا المنهج قد حقق فوزاً رائعاً على مناهج العصور الوسطى التي طمرتها أجيال طويلة بالصدأ المتراكم ، فإن نفس المنهج لم يعد صالحاً لمجتمع ما بعد الثورة الصناعية . ومع أن المبادئ والأسس لم تتغير ، لكن العقلية تغيرت تبعاً لما طرأ على المجتمع من تغيرات عنيفة . وأصبحت الحركة الإنسانية التي كانت تقدمية في عصر النهضة ، أصبحت اتجاهات تقليدية قديمة لا تناسب ما حققه المجتمع من تطورات وتغيرات .

كانت الحركة الإنسانية في بداية عصر النهضة تقدمية ، وأدت أهدافها لحقبة من الزمن . وما عادت صالحة في عصر آخر .

وقبل أن نفكر إلى مجتمع ما بعد الثورة الصناعية ، جدير بنا أن نقف قليلاً عند حركة الإصلاح الديني .

وظهر البروتستانت في إنجلترا وهولندا واندنمارك والنرويج والسويد وشمال ألمانيا ، وانقسمت أوروبا إلى بروتستانت محتجين على البابا الكاثوليكي . وظل موالياً للبابا إيطاليا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال وجنوب ألمانيا والنمسا .

وقد بدأت الثورة الدينية في ألمانيا ، وكان الألمان يدفعون مبالغ ضخمة للبابا بل كان على الأساقفة الألمان إثر تعيينهم في وظائفهم أن يدفعوا مبالغ كبيرة للخزانة البابوية ليحصلوا على تأييد البابا . ولم يعجب بعض قادة الألمان تدخل البابا في هذا التعيين ، كما إن كتابات إيرازمس وخاصة في مؤلفه « تمجيد السداجة » مخزية من هذا التدخل البابوي . وكان إيرازمس يعتقد دائماً أن هذه التصرفات البابوية لن تجد قبولا عند الناس عندما ينالون قسطاً كافياً من التعليم .

وفي عام ١٥٢٠ كتب مارتن لوثر Luther الأستاذ بجامعة وتبرج كنياً An address to the German Nobility طلب فيه من الحكام الألمان إصلاح الكنيسة ، فقد وجد استحالة هذا الإصلاح عن طريق البابا ، وأظهر تجسراً على المبالغ التي تدفع للكنيسة الرومانية وطالب بتقليل عدد أيام العطلات الكنسية وفي الأديرة والسماح لرجال الدين بالزواج (١) .

وهاجم البابا ليو العاشر مارتن لوثر وآراءه ، ولكن الأمراء الألمان عضدوا موقف لوثر رافضين تدخل الكنيسة في شئونهم : وأمام مجلس عقد في ورمز سنة ١٥٢١ اعترف لوثر بمهاجمته الكنيسة . واعتبر لوثر مارقاً على الكنيسة ومهدداً لها وللدولة . وطلب أعضاء المجلس الذي دعا إليه شارل الخامس في ورمز أن يمتنع الناس عن إعطاء لوثر طعاماً أو شرباً أو مأوى ، وصدر أمر بالقبض عليه . ولم يعر أحد التفاتاً إلى قرار ورمز هذا . فقد هرب لوثر وتحصن في قلعة بمدينة ورتبرج تحت حماية الأمير المنتخب . ثم بدأ ترجمة جديدة للإنجيل إلى الألمانية .

واندلعت الثورة الدينية ، وترك عدد كبير من الرهبان والراهبات الأديرة وتزوجوا . ومزق الطلبة والمواطنون صور القديسين في الكنائس ، بل توقفوا عن بعض الصلوات الدينية التي تعزبها الكنيسة الكاثوليكية . ولكن لوثر ثار ضد هذه التصرفات ، وخرج يعلن أن أية تغييرات في الإجراءات الدينية يجب أن تبدأ بها الحكومة لا الشعب . واستمع الحكام لأقوال لوثر لأنهم وجدوا فيها فرصة للاستيلاء على ممتلكات الكنيسة ، كما استمع الفلاحون لآرائه لأنها وضعت الكتاب المقدس بين أيديهم ولم يجلدوا فيه ما يحتم عليهم دفع إتاوات لسادتهم .

وفي عام ١٥٢٥ ثار الأبقان . وباسم (عدالة الله) هوت قلاع وأديرة وقتل مئات من النبلاء . ولكن جماعة من النبلاء انتقموا أشد انتقام من الفلاحين فقتلوا منهم مائة ألف فلاح . وقد وقف لوثر إلى جانب الأمراء ضد الفلاحين ولكنه لم يقل بقتل الثائرين وإنما نصح باستعمال القوة والقسوة مما أغضب إيرازمس . واستمرت الحروب الداخلية مائة عام في ألمانيا ، مما أضعف قواها .

وإذا تركنا ألمانيا إلى سويسرا وجدنا الحركة البروتستانتية يزعها زونجلي Zwingli وكلفن Calvin . فقد قاد زونجلي حركة تمرد دينية وسيطر على زيورخ ولكنه قتل فيها ، وخلفه كلفن الذي كتب رسالة إلى فرنسيس الأول ملك فرنسا يبرر فيها الحركة البروتستانتية ، ومعتمداً كل الاعتماد على ما جاء في الإنجيل ، فهو مثلاً يرفض استخدام الأرغن والنوافذ ذات الزجاج الملون في الكنائس لأن الكتاب المقدس لم يذكر عنها شيئاً (١) .

وانتشرت الحركة الكلفنية من جنيف إلى ألمانيا . ثم تغلغت في فرنسا حيث عرف أتباعها باسم الهيجنوت Huguenots ، ثم في الأراضي المنخفضة ثم في إنجلترا بين المتطهرين Puritans ، وفي اسكتلندا بين البرسبيترين Presbyterians وقد هاجر عدد كبير من الكلفنيين من مختلف هذه الطوائف إلى أمريكا .

وكان لحركة الإصلاح الديني أثرها في البناء الاجتماعي والتربية ، أما عن البناء الاجتماعي فقد انتقل فيه مركز الثقل بحيث توزعت القوة بين الطبقات ، بل إن الطبقة الوسطى استخلصت لنفسها مكانة أخذت تزايد عبر الأجيال . وقد انقسم المجتمع إلى ثلاث طبقات متميزة (١) :

١ - الطبقة الريفية وتنقسم إلى :

(أ) النبلاء ، وهم من كبار ملاك الأراضي ولهم حظوة وامتيازات عند الملوك .

(ب) الجنترى ، وهم من كبار ملاك الأراضي ، ولكن لا يتمتعون بالاحترام والمكانة الاجتماعية التي يناها النبلاء .

(ج) الفلاحين الأحرار ، ويمتلكون مساحات محدودة من الأرض .

(د) المستأجرين ، والشغاليين في الأراضي ، والأقنان ، وهؤلاء يعلمون تحت إمرة غيرهم .

٢ - سكان المدن وينقسمون إلى :

(أ) كبار التجار وأصحاب الأعمساك وهؤلاء تملكوا معظم الثروات واستأجروا عديداً من الموظفين يعملون لهم .

(ب) صغار التجار وأصحاب المهن . وهؤلاء يتمتعون بالاستقلال في كسب العيش ، ولهم مركز اجتماعي محترم .

(ج) العماك الفنيين ولهم مكانتهم بحكم مهارتهم في أعمالهم .

(د) الشغاليين .

٣ - طبقة رجال الدين :

(أ) كبار القساوسة ، ولهم مكانة سامية كمكانة النبلاء وكبار التجار .

(ب) صغار القساوسة ، ولهم بحكم التقاليد نفوذ ومكانة محترمة .

المدلول التربوي لحركة الإصلاح الديني

الأصل في حركة الإصلاح الديني أنها احتجاج صارخ على قصر سيطرة الكتاب المقدس على المسائل الدينية ، واحتجاج على سيطرة رجال الدين ، ورغبة في تحكيم الفرد عقله في تفسير الكتاب المقدس . وقد انقسمت حركة الإصلاح الديني إلى ثلاثة تيارات رئيسية (١) :

- ١ - الاتجاه العلمي والفلسفي الذي لم يبد واضحاً إلا في القرن السابع عشر
- ٢ - الاتجاه الإنساني المتأرجح بين الناحيتين التقدمية والتقليدية .
- ٣ - الاتجاه اللاهوتي :

وقد اقتنع قادة الإصلاح الديني بضرورة ووجوب تفسير الكتاب المقدس تبعاً لما ترتضيه عقلية الفرد ، ولكنهم وجدوا من الصعب عليهم إقناع غيرهم بهذا ، ولذلك لم تبذل جهود إيجابية في تنمية القوى العقلية والتفكيرية والدينية ، والمسائل الدنيوية ، ونظم الحياة الاجتماعية . وحقائق الطبيعة . ولكن غلبت على التربية الناحية الشكلية التي نمت نتيجة لسيطرة الجامعات اللاهوتية من لوثرية ، وكلفنية ، وزونجلية وغيرها وغيرها ... وكثرت الطوائف المتنازعة ، وظهرت عقائد مختلفة . وتأثرت التربية بهذه الانقسامات الشكلية الضعيفة . ويمكن تلخيص مبادئ التربية البروتستانتية في :

١ - الاهتمام بالمواد الإنسانية ، فهذه تقوم على دراسة اللغات الكلاسيكية وهذه الدراسة تتيح للدارس قراءة ودراسة الكتاب المقدس وكتب الآباء بلغتها الأصلية :

٢ - تأسيس نظام من المدارس على فكرة « التربية العامة » ، وهذا النظام مبني على ما رآه زعماء حركة الإصلاح الديني من أن السعادة الأبدية لكل فرد متوقف على تحكيم عقله في تعاليم الوحي التي تضمنها الكتاب المقدس . ولكي يتفهم البروتستانت تعاليم الإنجيل ويتمرن على تحكيم عقله : كان لابد له من

(١) مزود (المرجع السابق) : ص ٦٤ - ٦٩

دخول المدرسة : وبذلك أصبحت للمدرسة وظيفة جديدة . وأصبح لزاماً أن تفتح مدارس كثيرة لتقبل آلاف الأطفال .

٢- تهدف التربية في نظر البروتستانتين إلى تنمية المعتقدات الدينية وزيادة ميل الطفل وحبه للكنيسة ، لأنه سيرتب على ذلك سعادته الأبدية ، ولهذا فكان محور الدراسة هو الدين والإعداد للغوى .

٤- يقوم على إدارة المدرسة إما كبير الكنيسة ، وإما الدولة والكنيسة معاً ، وتميزت هذه الإدارة بالحزم الشديد واحترام السلطة والتقاليد وخضوع التلاميذ لها خضوعاً تاماً .

ولكى نلقى بعض الأضواء على التربية في القرن السادس عشر ومدى تأثيرها بحركة الإصلاح الديني ، نتناول واحداً من زعماء هذه الحركة ونعرض بعض رائه وخاصة المرتبطة بالتربية والتعليم .

مارتن لوثر

وقد أثر مارتن لوثر على التربية ، وقد عرفناها خاضعة للكنيسة طوال العصور الوسطى ، ثم بدأ تدخل الأمراء في السنوات الأخيرة من هذه العصور في شئونها ، وشاركهم في هذا التدخل حكام المدن والنقابات . ولم يعجب هذا التدخل رجال الكنيسة . وقد تعرضت المدارس والإشراف عليها والمناهج لهجوم عنيف ، فقد شكاكبار التجار مثلاً من عدم قيمة ما يدرسه أولادهم في المدارس ، وأنه غير عملي . وظهرت أول بوادر التربية المهنية في المدن الكبرى .

بضعت الحركتان الإنسانية والإصلاح الديني المسار الأخير في نعش السيطرة الكاثوليكية على الأجهزة التعليمية (١) . ولما كانت النزعة موجّهة إلى مركز التعليم ، فقد أصبحت الفرصة سانحة أمام البروتستانت لأن يطلبوا من الحكومات ، على مستوى الدولة ومستوى المدينة ، أن ينظموا المدارس ويجعلوا منها ركائز للمجتمع البروتستانتي (٢) .

(١) قام الكاثوليك بحركات مضادة .

(٢) Ulich, op. cit., pp. 121 - 129

وفي سبيل هذا كتب لوثر رسالتين ، إحداهما موجهة إلى النبلاء المسيحيين في الأمة الألمانية ، والثانية موجهة إلى أعضاء مجالس المدن في ألمانيا .

ومن أهم آراء لوثر في التربية :

١ - يرى أن معنى التربية وهدفها هو مساعدة الفرد على فهم التزاماته الاجتماعية التي تجعله في الإمكان تحقيق مجتمع مسيحي سليم . ويتحقق مثل هذا المجتمع إذا عرف المواطنون الله وأطاعوه ، وإذا قدروا واحداً موا الكرامة البشرية بالنسبة لأنفسهم ولغيرهم .

٢ - يرى لوثر أن عمل المدرس متواضع ولكنه خطير الأهمية ، وأن عملاء مدرسه ، فهو مفوض لنشر الروح المسيحية بين الناس . ويتم له ذلك إذا وجد نظام إجباري لتعليم كل الأطفال . وبهذا يتكلم لوثر عن تدخل السلطات المدنية في الإشراف على المدارس . ويقول أيضاً إن بعد انتشار هذه المدارس في القرى والمدن ، يختار أنه التلاميذ يدخلوا الجامعات ، ويختار أحسن الخريجين ليتولوا المناصب الهامة . وبهذا تتغير فكرة الناس عن التعليم ، وسوف يرى الأب أن لابنه المتعلم مركزاً يكفل له حياة سعيدة .

وفي المدارس الابتدائية يتعلم الأطفال القراءة والكتابة والحساب والدين والموسيقى الدينية ، واللغة اللاتينية ، وكان تعلم اللاتينية ضرورياً لأنها لغة الكتابة في الوظائف الفنية .

٣ - يرى لوثر أن وظيفة التربية أكثر من مجرد الاهتمام بالناحية الدينية والعقلية ، فعليه أن تهتم بالفرد في نموه الجسمي ونموه الانفعالي كذلك . ويتفق لوثر مع أفلاطون في أهمية الموسيقى لانفعالات الإنسان . ويرى أن الموسيقى هبة من الله ، وتأتي في مرتبة تالية مباشرة لهبة الدين . وبلح في ضرورة تمرين الشباب على الموسيقى فهي تخلق منهم أفراداً نهاء صالحين .

٤ - فيما يختص بالتعليم الأعلى من المدارس الابتدائية (أي المدارس الثانوية) ، فهو يقترح منهاجاً شبيهاً بمنهاج الإنسانيين في تأكيده على اللغات القديمة ، ولكنه يرى أن يكون مكانها في المنهاج ثانوياً ، إذ أنه هدف إلى

إعداد شباب مسيحي مثقف واع قادر على تفهم ما حوله في ذكاء .. ويكون ذلك بتعلم الدين . وما كان يهيمه تعلم اللغات القديمة لدراسة الأدب القديم ولكن لفهم المسيحية كما يجب أن تفهم . ١

ويوضح لوثر فلسفته التربوية المتمركزة حول المسيحية فيقول : « إبي أرغب في عديد من الشعراء والافويين ، ولكن لا لمصلحة اللغة اللاتينية . وأشعارها ونحوها وبيانها ، وإنما لتكون دراستهم للأداب القديمة طريقاً للوصول إلى الصدق المقدس الذي يهديهم سواء السبيل :

٥ — عاب على طرائق التدريس ، فيقول مثلاً إن المتعلمين كانوا يفضون عشرين عاماً ليتعلموا اللغة اللاتينية ثم يصبحون قساوسة ويعظون الناس .. وهؤلاء القساوسة جهلة كبار ، لا يصلحون حتى لأن يضعوا بيتاً أو يصبحوا كما يصبح الدجاج . ولذلك فن خلال كتاباته نلمح اتجاهاً نحو ربط المدرسة باحتياجات الناس ، ولذلك فهو يشرك الراشدين في العملية التربوية ؛ فتفتح مكتبات حتى تيسر للناس القراءة والمعرفة عن الله وعن الطبيعة وعن الوطن وكان لوثر يتكلم بهذا الرأي في وقت سار فيه العمل المدرسي من الكتب إلى العصى (الفلقة) .

٦ — يقدر لوثر عمل المدرس ، فيقول : « إننا لن نجزي هذا الشخص المثابر — المدرس أو المهذب — الجزء الأوفى : : : فأى مقدار من المال لن يوفى له دينه الذي في أعناقنا — وهكذا قال غير المتدين أرسطو ، ومع هذا فنحرم نعامل المدرسين بكل احتقار ، وكأنهم فئة لا قيمة لها ولا اعتبار ، ثم ندعى دائماً أننا مسيحيون مؤمنون . إني من ناحيتي لو أكرهت على ترك مهنة الوعظ لأدخل في أى مهنة أخرى . فأنا لا أعرف مهنة ينشرح لها صدرى أحسن من أن أكون مدرساً — أو معلماً للصبيان . لأنى أعتقد أن مهنة التعليم تلي مهنة الوعظ في فوائدها ، وفي خدمتها للعلم . وفي الحقيقة إني أحر في بعض الأحيان في أيهما أشرف من الأخرى . لأنك لن تستطيع تعليم كلب هرم نوعاً جديداً من الخيل . كما أنه من الصعب أن نصلح مدمنى الإجرام . هذا هو

ما نحاول أن نفعله في مهنة الوعظ . وكثيراً ما تذهب جهودنا هباء . ولكنه من السهل أن تربى الأشجار الصغيرة ، ولو أن بعضها قد ينكسر في بعض الأحيان نيا صديقي إنك لن تجد في أى بقعة من الأرض فضيلة أعلى من تلك التي يتحلل بها الرجل الأجنبي الذي تعهد إليه بأولادك فيربهم باخلاص وأمانة ، انه لعمل قلما يعمله الآباء لأولادهم (١) .

اتجاهات في المؤسسات المشرفة على التربية

أثرت حركة الإصلاح الديني على شكل ومضمون التربية مما ألقى ظلالاً مازالت مؤثرة في كثير من أنظمة وفلسفات التربية في العالم الغربي اليوم ، ومن أهم هذه الاتجاهات :

أولاً : الاقتناع بضرورة أن تنال الطبقات الدنيا تعليماً ، ولكنه تعليم لا يصل إلى مستوى ما تناله الطبقات الأرقى . وبذلك انفسح الطريق لثنائية في التعليم . نوع للفقراء وآخر للقادرين ، والأول يظهر في المدرسة الأولية ذات التعليم باللغة الدارجة والثاني يظهر في المدرسة الثانوية الكلاسيكية . ولم يوافق بعض زعماء حركة الإصلاح الديني على فكرة تعليم جماهير الشعب وخاصة في الطبقات الدنيا .

ولا ينفي هذا قولنا بأن بتور ديموقراطية التعليم بالمفهوم الحديث وضعت ، بان صحاحات الإصلاح الديني . فقد أعلن لوثر عن عمومية التعليم بمعنى أن كل الأطفال - الأغنياء والفقراء ، والبنين والبنات - يجب أن يتعلموا . بل إن الفس المورافي كومنيوس نادى بتأسيس سلم تعليمي كامل يبدأ من أدنى لستويات ويصل إلى مستوى الجامعة (٢) .

ولم تستطع الرغبة الديمقراطية في التربية أن تحقق لنفسها مكاناً تحت الشمس سهولة ، فان سحب الأرسطوقراطيين كانت تتجمع لتجذب الشمس عن

(١) منرو (المرجع السابق) ، ٧٤ - ٧٥

(٢) يجب أن نفرق بين « ديموقراطية التربية » بمعنى تسكانو الفرص لسكل المواطنين ، وبين « عمومية التعليم » بمعنى أن ينال كل مواطن قسطاً ما من التعليم ، وفي العمومية يختلف تعليم الفقراء عن تعليم الأغنياء بحسب المستوى الاقتصادي ، الأمر الذي ترفضه ديموقراطية التعليم .

التطلعات الديمقراطية . حتى بدأت هذه السحب تنقشع تدريجياً مع السنوات الأخيرة في القرن الثامن عشر ومعظم القرن التاسع عشر .

وقد اهتم لوثر وكلفن وغيرهما بتعليم البنات ، ويلوح أن المدارس الهولندية كانت أسبق من غيرها في فتح أبوابها لتعليمهن ، ولكن بعض الطوائف (مثل الكويكرز والإنجليكيين) رفضوا رفضاً باتاً تعليم البنات ، ويذكر أن الزوجة الثانية للويس الخامس عشر ملك فرنسا أنشأت مدرسة في سانت سير لتعلم بنات الطبقات العليا .

ثانياً : لحركة الإصلاح الديني الفضل في بداية ظهور التعليم المدني ، أي ذلك النوع من التعليم الذي أصبحت تسيطر عليه السلطات المدنية . ويمكن أن نطلق على هذا التعليم العام أو التعليم الشعبي الذي يتيح الفرص لأفراد الشعب لنيل قسط من التعليم ، وقد سار هذا التعليم المدني جنباً إلى جنب مع زميله التعليم الذي تشرف عليه الهيئات الكنسية . وكانت بعض الهيئات الكنسية تسيطر على تعليم مشابه للتعليم المدني من حيث مراحل ومواد الدراسة ، إلا أنها صبغته بصبغة دينية فيها دعاية واضحة لمذهبها الديني .

على أن التعليم المدني في كثير من الدول الأوروبية بدأ بحس وطأة التعصب الديني ، ولناخذ مثلاً السيطرة المدنية على التعليم في إنجلترا ، فقد أصدر الملوك الإنجليز البروتستانت أوامر خاصة بالمدارس والجامعات متوجه بأن الملك هو الرأس العليا للكنيسة . ويذكر أن الجامعات والمدارس خضعت لتفتش ، فكان الملك هنري الثامن والملكة اليزابيث يرسلان أعوانهما إلى هذه المؤسسات التعليمية كتابة تقارير عما يدور فيها . وقد صدر مرسوم عام ١٩٦٢ مهوراً بخاتم الملكة اليزابيث يتطاب من كل مدرس أن يقسم بين الولاء للملكية والعقيدة الإنجيلية .

وعندما دانت السيطرة للمنتطهرين puritans في إنجلترا ، نادى زعمائهم بتأسيس نظام تربوي على مستوى الدولة (١) . واكن السيادة للمطهرين لم تدم

مدة طويلة ، ولم يتحقق هذا النظام التربوي الذي راودهم . ولجأ المتطهرون إلى التعليم في الخفاء حتى عام ١٦٨٩ بعد أن اعتلى عرش إنجلترا وليام وماري .
ثالثاً : اهتمام البروتستانت بالأسرة كؤسسة تربوية ، فقد أكد لوثر أهمية الأسرة في إثارة المعاني الخلقية والدينية وممارستها على هدى من الكتاب المقدس : وأكدت الكلفنية أهمية الأسرة في التربية في مراحل النمو الأولى ، ونادت بالإفاضة في قراءة الكتاب المقدس ، والحرص على آداء الشعائر الدينية والصلاوات ، والتحذير من العقاب الذي يحل على الأطفال الضالين ، وفي هذا يعبر كومنيوس بقوله إن على ركبتي كل أم مدرسة .

وقد ساعد على تحقيق بعض مبادئ البروتستانت انتشار الطباعة وبصرة الحصول على نسخ من الكتاب المقدس وغيره من الكتب الدينية ، وخاصة بعد أن تزايد عدد القادرين على القراءة . ثم بدأت الأسر الموصرة تقتني مكنتبات خاصة .

رابعاً : الحركة الكاثوليكية المضادة : فلم يقف الكاثوليكيون مكتوفي الأيدي أمام هجمات البروتستانت ، وقامت نزعات دموية سالت فيها الدماء غزيرة تحت شعار مجد الرب ، ومملكة المسيح . وتناسى المسيحيون تعاليم السيد النبيلة ، فقتل الواحد منهم الآخر مظهرين قدرتهم على الكراهية والبغضاء في عنف وقسوة هي أبعد ما تكون عن تعاليم هذا المعلم العظيم .

وأقام المحاكمون الأسبان والرومان محاكمهم لتحكم على مناهضي الكاثوليكية بالمرطقة والضلال الديني ، وبأعمال السحر والشعوذة ، وبال كفر وسب الدين ... وغيرها من التهم التي أوصلت المذنبين إلى ساحات الإعدام . وقد عرفت الأعياد المسيحية مشاهد رهيبية لتسلية المسيحين المخلصين ، ففي هذه الأعياد اقتيد الضالون من البروتستانت وغيرهم من الطوائف غير الكاثوليكية

وكذلك بغض اليهود والمسلمين ، إلى المحازر العامة .
وبالمثل نال غير البروتستانتين أصنافاً من التعذيب والاضطهاد حيث
مادت البروتستانتية ، ففي ألمانيا مثلاً ظهر التعصب الديني مدمراً سفاحاً :
وفد عقد البابا مجمعاً في ترنت (١٥٤٣ - ١٥٦٣) من أجل تحديد العقيدة
الكاثوليكية ، واقترح المجمع إنشاء جمعيات دينية من الجيزويت Jesuit
وجماعة الخطباء Oratorians والإخوان المسيحيين Christian Brether .
وكان المبدأ الأساسي لجماعة الجيزويت هو وجوب الخضوع التام للسلطة
القانونية ، وشعار الجمعية « الكل للمجد الأعلى للرب » (١) .

وقد وضع الجيزويت خطة مثالية في التربية ، لا لأفراد جماعتهم فقط ،
ولكن لتربية الشباب بوجه عام . ولم تقتصر مواد التربية على المسائل الدينية ،
بلى حوت أرقى ما وصلت إليه العلوم المدنية وقتئذ ، وليس أدل على نجاحهم
من أن بعض البروتستانت التحقوا بمدارسهم . ويؤخذ على نظام التربية عند
الجيزويت عدم اهتمامهم بالتعليم الأوّلي . فقد اهتموا بتربية القادة والزعماء ،
ولذلك تفرغوا للتعليم العالي . ونجدهم حريصين على تكريس حياتهم للنهوض
بمصالح طائفتهم ، ولم يطلبوا في الغالب أجراً لقاء ما يقومون به من تربية (٢) .
وتتميز معاهد الجيزويت التربوية بدقة إدارية تثير الإعجاب ، فكان
عميد الكلية يتبع رئيس الدائرة (قسمت الطائفة إلى عدد من الدوائر الإدارية ،
ولكل دائرة رئيس مسئول مباشرة أمام القائد الأعلى) ، ويلى العميد العرفاء
وهم يشرفون على المدرسين إشرافاً دقيقاً للتأكد من التزامهم للنظام الموضوع .
ويشرف المدرسون على التلاميذ الذين يقسمون إلى مجموعات ، يرأس كل
مجموعة مقدم . ويشرف التلميذ على زميله ، ويبلغ عن أى انحراف في النظام .
ويذكر منرو (٣) أن المدرسين في مدارس الجيزويت انقسموا إلى أربعة

(١) Omnia and majorem Dei gloriam

(٢) McCormick, op. cit., pp. 411- 420

(٣) منرو : (المرجع الأسبق) ص : ٨٨ - ٨٩ .

أقسام : الأساتذة ، والمساعدون ، والمدرسون ، والطلبة المعلمون . والطلبة المعلمون هم أولئك الذين قبلوا في المهنة بعد أن انتهوا جزئياً من إتمام الدراسة بالكليات الصغرى . أما المدرسون فيخضعون لشروط قاسية من حيث المؤهلات ، ويفخر الكاثوليك بالعناية التي اتبعت في إعداد المعلمين للمدارس الجزويت (١) .

أما عن المدارس والتلاميذ ، فقد دخل الطلبة المدارس الثانوية التابعة للجزويت بعد أن نالوا تعليماً ابتدائياً تحت إشراف هيئات أخرى . وسمح للتلاميذ بالالتحاق بمدارس الجزويت بعد سن العاشرة ، وسميت هذه المدارس بالكليات . وهناك نوعان منها : الكليات الدنيا وتمتد الدراسة فيها إلى خمس أو ست سنوات ، ثم العليا والدراسة فيها على المستوى الجامعي . وقسم المنهاج في الكليات الدنيا إلى : ثلاثة (فصول) للنحو ، ثم الفصل الرابع للإنسانيات ، ثم الخامس للبيان . أما في الكليات العليا أو الجامعية فقد درس الطلبة فيها الفلسفة (وتشتمل على الرياضيات) ، والعلوم الطبيعية لمدة ثلاث سنوات ،

وكانت اللغة اللاتينية هي لغة الدراسة بالكليات الدنيا والعليا ، واشتمل المنهاج في أساسه على دراسة الفنون العقلية الحرة السبعة ومقتطفات من الكتاب اللاتينيين القدماء . ولم يشجع الجزويت مطلقاً استخدام اللغة القومية ، كما (طهروا) مؤلفات غير المسيحيين ونقوها مما يتعارض مع المسيحية قبل أن تقدم ليدرسها الطلبة .

وقد انتشرت مدارس الجزويت في أنحاء العالم الغربي والشرقي ، ويذكر ما كورميك أنه كان لجماعة الجزويت ٣٧٣ (كلية) عام ١٦١٥ ، ارتفع عددها إلى ٧٦٩ في عام ١٧٠٦ ، ثم إلى ٨٢٧ في عام ١٧٥٦ م ، وقد وصل عدد الطلبة في هذه الكليات والجامعات في منتصف القرن الثامن عشر إلى

(١) ويتضح هنا في كتاب الدكتور Mc Cormick المشار إليه سابقاً ، حيث أن المؤلف كان عميداً للكلية الكاثوليكية بأمريكا The Catholic University of America .

حوالى ٢١٠,٠٠٠ طالباً . وقد اضطهدت جماعة الجيزويت ثم رد لها البابا بيوس السابع مكانتها عام ١٨١٤ لتواصل رسالتها .

العقلية الأوروبية من عصر النهضة إلى الثورة الفرنسية

كان التفكير في عصر النهضة احتجاجاً صارخاً على التقاليد المتزمتة التي فرضتها الحركة المدرسية خلال قرون طويلة ، وكان التفكير الجديد تحدياً للآراء الأرسطية والخضوع الكامل لها . ويمكن تقسيم العقل الأوروبي في مراحل نموه منذ السنوات الأخيرة للعصور الوسطى إلى الثورة الفرنسية (١٧٨٩ م) إلى عقلية عصر النهضة وعقلية عصر الإصلاح الديني ، ثم عقلية الحركة العلمية ، وأخيراً عقلية فلسفات المذاهب العقلية والتجريبية والتشككية .

أولاً : عقلية عصر النهضة :

درس الإنسانيون الكلاسيكيات ، ولكن قلة منهم تفهموا الروح العقلية الإغريقية ، ولذلك فإن إسهام الإنسانيين جاء بطريق غير مباشر ، فان تأكيدهم على فلسفة أن الإنسان ككائن بشري يجب أن تحتل مشاكلة الدنيوية مركز الصدارة قد أدى إلى إثارة نمو الاهتمام بالأمور الدنيوية وحب الاستطلاع العلمى . وهذا ما يميز العقل الحديث . ولكن اهتمامات الإنسانيين كانت بعيدة عن الاتجاهات الواقعية وقريبة من الغموض . فان ارتباطهم بحركة الإصلاح الديني جعلهم في ركاب المعتقدات الدينية والإيمان بقوى عليا مهيمنة ، بل إن الإنسانيين والمصلحين الدينيين شغلوا بأجماد العصور القديمة ، ولم يقدموا للتقدم البشرى إلا النذر اليسير .

وقد عبد الإنسانيون في تقدير وخشوع التراث القديم ، وإذا كانوا في دعواهم قد حاولوا تحرير عقل الإنسان إلا أنهم أوقعوه عبداً لكلمات وأفكار الكتاب القدماء مثل شيشرون ، كما حدث عندما وقع العقل البشرى أسيراً لفلسفة وآراء أرسطو . وقد عبر إيرازمس عن النزعة الشيشرونية في نقد لاذع قائلاً إن التفكير الحر يجب أن ينزه عن كل سلطة ، وأن هدف الإنسانيين

الشيثرونين هو تقليد أفكار وأسلوب شيثرون (١) . ونحوت الإنسانية الى نادت في أيامها الأولى بالفردية والحرية العقلية إلى قوة ضغط وكبت (٢) .
ثانياً : العقلية البروتستانتية - الكاثوليكية :

تخلخلت السلطة ونوقشت المعتقدات السائدة عندما خرج المصلحون الدينيون في ثورتهم ضد الاستبداد الكاثوليكي . وفي غمرة هجوم المحتجين على التسلط الكاثوليكي فتحت أبواب ضخمة لآراء كثيرة تتحدى ما ظنه المسيحيون غير قابل للمناقشة . وكثرت مذاهب المتكلمين وآراؤهم ، وبهذا - بطريق غير مباشر - أتاحت البروتستانتية الفرصة للتقدم العقلي . فان البروتستانتين أكدوا أهمية الكتاب المقدس كصدر للإيمان وأساس للعقيدة . والسلطة الدينية والحلقية . ورفض البروتستانتون دعاوى البابا ورجال الكنيسة الكاثوليكية بأنهم المفوضون لشرح العقيدة المسيحية . ومن الناحية النظرية فقد نادى البروتستانتون بحق الفرد المؤمن في الخلاص مباشرة دون الالتجاء إلى وساطة وسلطة الكهنوت . وقصد البروتستانتون أن يكون من حق الأفراد والجماعات الصغيرة فهم وشرح الكتاب المقدس .

ولكن لم يستمر البروتستانتون في دعواهم التحررية هذه ، فقد تحولوا إلى تسلط أشبه بالتسلط الكاثوليكي ، بل إنهم استخدموا القوى المدنية لتأكيد معتقداتهم الدينية .

ومع اختلاف المذهبين إلا أنهما يفكران بطريقة متشابهة في مدركتهما عن الله والإنسان ومصيره ، والعالم . وقد جمعت هذه المدركات بينهما مكونين جبهة وقفت أمام شمس العلوم التي كانت تحاول البحث عن فجر تبرز من خلاله لتظل على العالم وتنبه وتدفعه . فقد ساد اتفاق بين البروتستانتية والكاثوليكية على أن هذا العالم من خلق الله ، وفيه يلعب الإنسان دوراً حددده

(١) طلت الحركة الإنسانية تدافع عن نفسها حتى النصف الأول من القرن السادس عشر تحت اسم (الشيثرونية) التي ترى أن الغرض من التربية هو تدريب المتعلمين على اتباع الأسنوت اللاتيني الكامل وأن شيثرون هو المثل الأعلى لذلك الأسنوت . وفي رأى الشيثرونية أن العمل المدرسي يجب أن يقتصر على دراسة مؤلفات شيثرون أو مقلديه .

له الخالق وواهب الحياة . واتفق المذهبان على أن هناك فرقاً بين العالم الطبيعي والعالم فوق الطبيعي ، وأن هذا الأخير - أو العالم الروحي - أكثر أهمية .

وفي رأى أصحاب المذهبين أن طبيعة الإنسان ثنائية ، تتكون من عناصر روحية وعناصر مادية ، والعناصر الروحية أكثر أهمية . وأكدت بعض الجماعات المسيحية مثل الكالفينية مبدأ الخطيئة الأصلية وأن الفرد يولد ومعد الخطيئة ، ولكن سادت اتجاهات فيما بعد مؤداها إنكار الخير الفطري في الإنسان ، بل إنكار أنه يولد ليس خيراً وليس شراً . وقد اتفق البروتستانتيون والكاثوليك على أن فعل الإنسان وسلوكه الخير في حياته الدنيوية ضروري لمجد الرب ولكي ينقذ الإنسان من عقوبة أبدية . وفي اعتقاد الكاثوليك والبروتستانت أن المعرفة والحقيقة تكشف عنهما قوى عليا حتى تنكشف للإنسان ، وأن هناك حقيقة مطلقة محددة . وقد اتفق المذهبان أيضاً على أن الهدف الأول في تربية الإنسان هو معرفته الحقة للقوانين والأحكام الإلهية . ولذلك فإن معرفة الإنسان للعالم الطبيعي أقل أهمية من معرفته للعالم الروحي . وقد فهم الكاثوليك والبروتستانت عملية التعلم على أنها الكشف عز الأفكار الفطرية التي وهبها الله لكل فرد . ولكي تخرج هذه الأفكار إلى عالم النور يجب أن يخضع المتعلم لعمليات تدريب عقلي وخلقي ، بل لا بد له من دراسة اللغات والآداب وحفظها على ظهر قلب .

هكذا كانت عقلية عصر الإصلاح الديني ، سواء عند المحتجين البروتستانت . أو أهل التعصب الكاثوليكي ، عقلية عارضت البحث العلمي (الحديث) ، فقد أحرقت الكنيسة الكاثوليكية جيورادانو برونو Giordano Bruno (١) . كما أرغم جاليليو Galileo على إنكار معتقداته عن أن الأرض

(١) آهم برونو في النصف الثاني من القرن السادس عشر بالمرطقة وتحوى سلطنة الكنيسة الكاثوليكية عندما أعلن أن فكرة كل شخص عن العالم تتناسب مع مركزه ، وأنه لا توجد حقائق مطلقة ... الخ . وقد حكم عليه في البندقية بالإعدام حرقاً ، وشد إلى قائم حيث أحرقت سنة ١٦٠٠ . ومن المضحك أن القائم الذي شد إليه يرمز إلى « حرية التفكير » .

تدور حول الشمس . وقد وصف لوثر العلوم بأنها زوجة الشيطان وأنها أعدى أعداء الله (٢) .

ثالثاً : العقلية العلمية :

عاد الاهتمام بالعالم الطبيعي وقوانينه منذ القرن الثاني عشر في أوروبا وتجمعت مظاهر هذه اليقظة في حركة النهضة العلمية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر عندما تحول اهتمام التفكير من عالم ما فوق الطبيعة إلى العالم البشري ، ثم تركز في العالم الطبيعي وقوانينه . ولعل أخطر وأعظم (اختراع) كان طريقة البحث الجديدة وهي الملاحظة والتجريب ، فان كل تغيرات التي طرأت على التفكير والمؤسسات الاجتماعية ترجع في أصولها إلى فضل العلم science وتأثيره على ميادين التربية والدين والأخلاق . لقد أعطى العلم للبشر عقلاً جديداً ، عقلاً ولد في فترة من الألم والمعاناة من جراء الالتحام الدموي العقائدي بين القديم والحديث ، صدام أفكار حددت مقادير ومصائر الملايين من البشر على الأرض التي ارتوت بدماء البعض وازدهرت بجهود البعض الآخر ؛

وكان الإنسان قد مجد نفسه ، ثم حدث أن اكتشفت الدنيا الجديدة في الطرف الآخر من المحيط الأطلسي الواسع ، وساد اعتقاد بأن هنالك عوالم أخرى مجهولة وآفاقاً لم نعرفها بعد ، وبدأ تمجيد الإنسان ينحوي لتلمع أهمية الأرض والعالم الطبيعي وتطلع الإنسان حواليه وإلى فوق رأسه . وبان له الكون هائلاً جباراً ، وحل اعتقاد بأن الكون معقد لا نهائي .. وكان هذا الاعتقاد محطماً لآراء أرسطو وبطليموس وغيرهما ممن سيطروا على التفكير المسيحي . ثم تقدم العقل العلمي محتلاً الأرض التي جلا عنها السلطان الكهنوتي والسيطرة الكنسية ... وبدأت حركة تحرير العقل الغربي من تحكم الحكمة القديمة والمعتقدات والآراء التي خرجت من مدن في شرقي البحر المتوسط وانتقلت ببطء مستمر على اليابس وعلى سطح الماء إلى جنوب أوروبا ثم غربها

ووسطها وشمالها ... اهتز هذا العقل بفعل دقائق العلم الحديث والتفكير العلمي السليم .

ومع أن الآراء القديمة عن الكون كانت من كلام الوثنيين إلا أن البروتستانت والكاثوليك اضطهدوا كل من عارض تلك الآراء ، فقد أحرق برونو وأرغم جاليليو على سحب آرائه ، واضطر كل أستاذ في جامعة تشرف عليها سلطات كنسية أن يقسم بأنه لن يدرس نظام كوبرنيق (١) . وعارض العقل البروتستانتي والكاثوليكى نتائج التلسكوب واستخدامه ، بل قيل إن ما تراه العين من خلال التليسكوب إنما هو من فعل الشيطان القابع داخل هذا الجهاز ومهمته خداع العين ، وأن ما رآه أرسطو هو الموجود ، وما لم يره فهو غير موجود . وعلى الرغم من هذه المعارضة الجارفة ، فقد تحين العلماء القرص السرية للاجتماع وإجراء تجاربهم بعيداً عن العيون . وجربوا في الطبيعة والكيمياء والهندسة ، وبحسوا في الفلك والجغرافية والتشريح والطب والملاحة والإحصاء ... إلخ . وتنبأ أصحاب العقول الراقية أن البيوتوبيا العلمية أصبحت على الأبواب . عن هذه المدينة المثالية تكلم كومنيوس وبيكون وغيرهما ممن بدوا أبصارهم عبر السنين ليشاهدوا مدناً تصل إلى الكمال عن طريق الاختراعات العلمية . وقال بيكون إن المعرفة قوة .

فضل كبير يعود إلى الطريقة العلمية فيما توصل إليه الإنسان من كشوف واختراعات . وقد أسست هذه الطريقة على آراء فرنسيس بيكون Bacon في كتابه الطريقة الجديدة Novum Organon (الذى ظهر في عام ١٦٢٠) والذى نادى فيه بالطريقة الاستقرائية (٢) . وليكون الفصل في أن طريقته

(١) نيقولا كوبرنيق (-١٤٧٣-١٥٤٣) عالم فلك بولندي وصف الشمس بأنها مركز الكون وأن الأرض تدور حولها .

(٢) في الاستدلال الاستقرائي تشتق المدركات أو المعاني أو النواعد من الجزئيات ، أى يكون الدارس قاعدة عامة من حقائق جزئية ، كأن تقول إن الحديد معدن وهو يتمدد بالحرارة والتحاس معدن وهو يتمدد بالحرارة والذهب معدن وهو يتمدد بالحرارة ، ثم تخلص إلى قاعدة وهي أن المعادن تتمدد بالحرارة وفي الاستدلال القياسى تطبق القاعدة على جزئيات .

الجديدة علمت العالم أن الأشياء الحقيقية هي الأشياء المادية وقوانين العالم الطبيعي . وكانت هذه النظرية تحدياً صارخاً لآراء أفلاطون (١) .

رابعاً : عقلية الفلسفة

كان لابد للاتجاهات العلمية أن تؤثر على تيارات التفكير ، فقد أصبح العقل العلمي يؤمن بأن لكل المعرفة جذوراً في الخبرة . ويؤمن التجريبيون Empiricists بأن ما هو موجود في العقل وجد قبل ذلك في الحواس . غير أن العقليين Rationalists يلحون في القول بأنه إذا كانت الحواس أدوات الحصول على المعرفة ، فان هناك مصدقات يصل إليها الفرد بعقله فقط ، ولا دخل للخبرة الحسية فيها . على أن المتشككين Skeptics أنكروا تماماً إمكانية المعرفة ، ولهذا فان شعباً عقلياً ساد القسم الأول من عصر العلوم .

فقد أساءت العلوم إلى اللاهوت والدين والأخلاق والميتافيزيقا . أساءت باتجاهاتها وآرائها وطرائفها في البحث . ووقف بعض الفلاسفة أنداداً أشداء للعلوم فيقول جورج بركلي Berkeley الفيلسوف الإنجليزي (١٦٨٥ - ١٧٥٣) بأن المادة لا توجد منفصلة عن كينونتها المدركة ، وأن عقل الله لذى يلاحظ كل شيء هو القادر على استمرار الوجود الظاهري للأشياء المادية ، كما أن داود هيوم Hume الفيلسوف والمؤرخ الاسكتلندي (١٧١١ - ١٧٧٦) أصر على تشككه فقد أنكر إمكانية المعرفة الحقة محطماً دعاوى العلوم والفلسفة ومؤكداً إنكاره قدرة الإنسان على معرفة أى شيء من حالاته العقلية أو عن العالم الخارجي .

ولكن ما أحسنه الحواس كان كافياً لإقناع الجمهور بأنه حقيقي ، وأن العالم المادى الطبيعي موجود . وبالحواس استطاع الناس أن يحركوا صخرة المنطق ممهدين الطريق للعلوم لتأخذ مجراها . بل إن الطرقت العلمية أصبحت نجد صدى عميقاً في اتجاهات تفكير الجمهور ولكن سطوة الدين وقفت شامخة ثابتة قوية وهب فلاسفة مثل بركلي يقولون إن الحقيقة روحية ،

(١) مزيد عن ليكون في الفصل التالى .

حقيقته مثالية ، وغيرهم آمنوا بالأفكار الفطرية ليحموا الدين . ولكن-
المتشككين والتجريبيين أنكروا صحة هذه الآراء . فيقول جون لوك
Locke (١٦٣٢ - ١٧٠٤) إن أساس المعرفة الخبرة ، ثم أثار النقاش
حول وجود الله . وظلت الحركات الثلاث تعمل لتحرير الفلسفة من عبوديتها
للدين وبذلك مهد الطريق للفلسفة الحديثة ورائدها عمانوئيل كانت Kant
الفيلسوف الألماني (١٧٢٤ - ١٨٠٤) .

ثالثاً - عصر العقل

انتقل المسرح الذي تمثل عليه الدراما البشرية الحديثة والإصلاح التربوي
خلال القرن الثامن عشر إلى فرنسا التي شهدت بزوع أفكار ومبادئ كان
لها أن تلعب دوراً خطيراً في حياة إنسان العصر الحديث . والظاهر أن الفرنسيين
أظهروا تفوقاً على غيرهم من الشعوب الأوروبية ، فقد قامت حرب بين
معسكر أنصار الأدب الكلاسيكي وبين أنصار الأدب الحديث ، نزعامة
Charles Perrault في عام ١٦٨٧ .

وعاش إنسان عصر التنوير في أوروبا يتخبر بين ثلاثة مصادر يشتق منها
المعرفة : الحواس والعقل والإيمان ، وكان الإنسان في تطوره يحاول دائماً
أن يوازن بين هذه المصادر ، ولكن كثيراً ما كان يغلب عليه مصدر منها ؛
ففي العصور الوسطى غلب الإيمان ، فكان مصدر معرفته ما ينزل إليه من
عند الله . أما في فرنسا القرن الثامن عشر فقد حدث تكامل بين عقلية ديكارت
وتجريبية جون لوك ، ومثل هذا التكامل فولتير . ويعبر عن هذا التكامل
بالعبارة الآتية (١) :

« نحن نعرف الحق بالعقل والعقل لا يستتير إلا عن طريق الحواس ؛
وما لا توصله حواسنا لا نعرفه ، ومن البله أن نضيع وقتاً في التخمين . إن
التصور والإحساس يقودان الأعمى قيادة عمياء ؛ وكل الذين يدعون أنه قد
تكشفت لهم أمور أو ألهموا ، إنما هم مخادعون ؛ وأن مصدقهم بلهاء » ؛

وبهذا المفهوم وهذه الفلسفة تميز التفكير في القرن الثامن عشر ، معتمداً على العقل وعلى الإدراك الحسى . وأعلن ديكارت ثلاثة أسس تقبلها المفكرون : (١) تفوق العقل ، (٢) وحدة قوانين الطبيعة ، (٣) طريقة محددة لاختيار الحق والتحقق منه .

وقد حقق العقل نصراً خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر في ميادين الرياضيات والعلوم الطبيعية ، مما حدا بمفكرى القرن الثامن عشر إلى الثقة به . وكانت آراء وأعمال كوبرنيق وجاليليو ونيوتون وغيرهم أصدق دليل على سفاهة التخمين والخضوع دون تفكير أو تجريب للأراء المتوارثة ، ووقف العلم شامخاً متحدياً رجال الدين وغير المؤمنين بالعقل والتجريب .

وكانت هذه التغيرات هي التي حدثت بمفكرى القرن الثامن عشر إلى التأكد من أن يقظة عقلية بدأت تهز الناس ، واحدة من تلك اليقظات التي عرفها التاريخ أيام مجد آئينا وعصر النهضة مثلاً . وأطلق المفكرون على هذا الزمن « عصر العقل » Age of Reason أو « حركة التنوير - Enlightenment » وأحس الإنسان المفكر أنه يتحرر من الماضي المظلم القاسى ، ذلك الذى سيطرت عليه الحرافات والأخطاء والجهل والتقاليد ، وكأنما الإنسان فى ذلك الماضى قد خدر واقتيد فى طريق ضال ، لأنه لم يفكر بنفسه ، فعاش حياته مغلفاً بالضباب لا يخرج منه ، ولم ير الشمس . ثم كانت الاتجاهات العلمية فانقشع الضباب وخرج الإنسان إلى النور ... وإلى الحرية ... بل إن النساء بدأن يدرسن الفلك والتشريع وأطلق لذكاء الإنسان العنان . وأدرك الفلاسفة الطبيعة على أنها آلة ضخمة تحكمها قوانين ثابتة .

ولابد من معرفة هذه القوانين لخبر الإنسان . وكما قال بيكون « المعرفة قوة » ، وتحول القول إلى علم واختراعات . وزاد إيمان المفكرين لمهاجمة الفساد فى الدين ، والأخلاق ، والدولة ، والمجتمع ، والكنيسة . ولن يستطيع الإنسان الوصول إلى هذه الجنة إلا بتحسين نفسه عن طريق المعرفة الماضية (م ٢٤ - تطور الفكر)

الكلاسيكية ، ولكنها المعرفة الحديثة التي تظهر في إنجازات العلوم والتحسينات في الفنون .

ولكن من يفكر ؟ هل يستطيع كل الناس هذا اللون من التفكير ؟
يؤخذ على حركة التنوير أنها كانت أرسوقراطية في اعتمادها على العقل كمنبع لنعيم الإنسان ، بل إن جماعة Encyclopedists (جامعي المعرفة) الذين هدفوا إلى التوفيق بين العقل والمؤسسات الاجتماعية ، اعتقدوا أن عامة الشعب غير قادرة على التنوير واستغلال العقل . ولذلك فهم في حاجة دائمة إلى قيد يحدد حركتها « سوف تظل العامة دائماً غبية همجية ، لأنهم ثيران تلزمها النير والسياط والعليق » .

وفشلت فلسفة حركة التنوير في ميدان آخر فأنها لم تقدم نظرية اقتصادية تتمشى مع الاتجاهات العقلية والعلمية ، وظهر جماعة أطلقوا على أنفسهم إسم الفسيوقراطيين Physiocrats أو الاقتصاديين Economis وكان ذلك في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، وكلمة فسيوقراطية تعني سيادة العالم الطبيعي بمعنى سيطرة القوانين الطبيعية على الاقتصاد ، وإلى الفسيوقراطية يرجع الفضل في تأسيس علم الاقتصاد .